

البعد الحضاري التكاملي بين حاضرة تلمسان والأندلس

د.بن داود براهيم

أ.جمال عبد الكريم

جامعة زيان عاشور الجلفة

مقدمة:

تعد تلمسان جوهرة من جواهر الأمة المحمدية التي أسهمت بصفائها وتصوفها في الحفاظ على المقومات الحضارية الانسانية الجمالية والدينية القرآنية للعالم العربي والاسلامي، ولعل أشعار متصوفتها وأوراد مشايخها وأذكار مرديها ومتون أدبائها وعلمائها إلا شاهد على حرص تلمسان بأعمدتها وأقطابها على دين سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم صاحب لواء الحمد المرسل رحمة للعالمين صاحب الرسالة التي لا تميز للون ولا لجنس ولا لثراء أو غيرها إلا ما كان التفريق فيه على أساس من تقوى الله عز وجل.

ثم إن الحديث عن استقبال تلمسان للأندلسيين لا شبه له على الإطلاق إلا ما كان بين المهاجرين والأنصار زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

والأندلس حضارة قائمة وهي خير سفير للإسلام الحقيقي النقي العذب الزلال الروحي الجامع بين الدين والفن بين العقيدة والمعاملة.

أولاً: تلمسان أصالة وحضارة عبر التاريخ

تلمسان حضارة أصالة وأصالة حضور "تلم" معناها نبع و "سان" معناها ماء أي نبع أو ينبوع ماء، وقد قيل سالفاً " تلمسان ماها وهوها وتلحيفة نساها"؛ وتلمسان جامعة للأندلس والبربر والعرب حتى كان أناسها يعتقدون بأزليتها.

وقد كان هنالك مدد مزدوج منا إليهم وعندما حصلت انتكاسة بلنسيا قالت لهم تلمسان أهلاً وسهلاً، فكانت موطئ قدم للأندلسيين فوجدوا في أهلة تلمسان الأهل والعون وكل شيء.

والحديث عن الأندلس هو حديث عن ثمانمائة عام من الوجود وجادت تلمسان بكل ما تملك وجاءت بحبكة متكاملة وامتزجت حضارتان وموروثان إسلاميان بتلمسان الحضارة والتاريخ .

وفي هذا الموضوع التاريخي تجلتفاعلية الأندلسي وفاعلية التلمساني الذي هو كالغيث حيثما حل نفع.

ثم إن ما قامت به اسبانيا وجيشها بالمسلمين بالأندلس مجزرة فضيعة في حق الانسانية والتاريخ شاهد على ذلك حيث تم التنكيل في مجزرة بلنسيا ب600 الف مسيحي وفي برثشتر 40 ألف مسلم وما قامت به محاكم التفتيش من تغيير وضرب للإنسان ولحضارة الانسان الأندلسي، إثر ذلك قام التلمسانيون الذين جمعوا اشتات الأندلسيين، كما جمعوا خلال هذه الأحيان ما تناثر في رثاء الأندلس وحضارة الاسلام فلا زال الخير في تلمسان وأهل تلمسان من خيرية الأمة المحمدية على لسان سيد الوجود "لا يزال الخير في وفي أمتي إلى أن تقوم الساعة".

وقد كانت الكتابات الشعرية والنثرية خير شاهد على ما حصل وأرقى ما قيل في ذلك القصيدة الأندلسية التاريخية التي قيلت رثاء أندلس الاسلام للشاعر أبو البقاء الرندي صالح ابن يزيد بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغمر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

هذه القصيدة التي أقل ما يقال عنها أنها جاءت بأكمل بيان لحال الأندلس ووصف ايامهم وما آل إليه وضعهم.

ثانيا: الأندلس حضارة شمال حوض المتوسط وجنوبه

كان للفتوحات الاسلامية دورها الكبير في المد الحضاري لأصقاع العالم قاطبة على خلاف اعتقادنا بأن الحضارة وفدت إلينا من الغرب خاصة إذا أدركنا أن الاسلام لم يقم على اللون أو اللغة أو الجنس، هذا ما أضفى البعد الانساني العالمي للرسالة المحمدية.

وقد كانت القيم الحضارية والانسانية بالأندلس والتي أضفاها المسلمون هنالك شاهدة على تلك اللمسات الحضارية هنالك، وقد كانت تلمسان رافدا وواصلا وهمزة وصل، إنها تلمسان مدينة الفن

والتاريخ وبملاءة ما فيها من التحف والمباني الفنية الرائعة الحاضرة، وبماضيها الفكري الثقافي والسياسي المجيد، فقد تضافرت جهود الطبيعة السخية الحسنة وجهود الانسان المبدع الخلاق لتكوين مدينة متفوقة راقية ممتعة للفكر وللقلب والروح معا، فقد بلغت أرفع مكانة في الجمل والكمال واستحقت بذلك أن تُلقب بجوهرة المغرب وقرنطرة افريقيا.

والناظر إلى تلمسان يعتقد أنها بلدة شامية هاجرت بأناسها وبساتينها وبنابيعها واغانيتها ونضرة الوجود فيها، هاجرت من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، والواقف على أعلى قمة هضبة "لالة ستي" يظن أن تلمسان أندلسا كبيرا هربت بأسطحها القرميدية وقصورها وموشحاتها من عدوة البحر في الشمال إلى التلال العالية في الجنوب بعد أن تساقط نصف متاعها وأبنائها أثناء الرحلة الخالدة، ومن مكانها في الجنوب كانت تلمسان تستطيع من فوق التلال أن تتطلع كل صباح إلى الأندلس أو تتذكر عل الأقل.

والمؤرخون القدامى والمحدثون ممن كتبوا عن تاريخ تلمسان كانوا يؤكدون بشهادة قاطعة أن المدن العربية في الأندلس حين خرج منها أهلها نزحوا إلى شمال افريقيا خاصة إلى تلمسان ولعل ولع الأهلين بالموشحات الأندلسية وحفاظهم عليها حتى الآن في هذه المدن الثلاث (اشبيلية، قرطبة، قرطبة) خير دليل على ما رواه المؤرخون إن لم يكن هذا الروع مرويا بجنين حزين إلى الماضي خاصة وأنه الميراث الأخير الذين ما زال يحتفظ به الأندلسيون من الاندلس، وما نبرة الحزن التي تشيع بعقبها التاريخي في هذه الموشحات إلا تلويح وداع أبدي لعله قد فُقد إلى الأبد، إن هذه الرجعة الصغيرة إلى تاريخ تلمسان قد تغيب عن البال إذا كان العابر بها يمر بمدينة الينابيع لأول مرة، أما إن عدت لتاريخ تلمسان فستعجب أكثر من أمرها بقدر ما قد يحزنك ما مر بها من أمم غازية.

كما عُرِفَت تلمسان أيضا بثناء شعرها وأدبها الصوفي بها شعراء كبار وأدباء مشتهرون ويأتي تنوع ثقافتها وأدبها من تنوعها فهي تضم عربا وبربرا وأندلسا وقد لعبت المدارس القرآنية والزوايا دورا أساسيا في ازدهار التعليم الديني ولا يمكن تحديد هذا الدور في بضعة أسطر بل يتطلب ذلك دراسة معمقة.

إن هذا الازدحام التاريخي على تلمسان قد يُعزى إلى ناحية أخرى تتعلق بموقعها الجغرافي وأهميتها الاقتصادية، فتلمسان بحكم موقعها المتوسط بين شرق افريقيا وغربها، وبحكم وقوعها في نقطة قريبة من البر الأوروبي، قد لفتت إليه الأنظار لتكون محطة القوافل العابرة بين شرق الشمال الافريقي وغربه والمؤرخون القدامى كالبكري، وابن خلدون إذ يؤكدون أن تلمسان قد كانت سوقا لتجارة الذهب الذي كان يحمل من وسط افريقيا في طريقه إلى أوروبا أو الشمال الافريقي أو المشرق العربي.

ومنذ القدم كان بعض التلمسانيين إلى اليوم يرو أن بعض القصص القرآني قد حصلت عندهم بتلمسان، وقد ذكر ابن خلدون هذه الناحية واستبعدها حين قال " ويزعم بعض العوام من ساكنيها أنها أزلية البناء، وأن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أغادير من تلمسان".

ويروي البكري أن أبا المهاجر الصحابي كان أول من نشر الإسلام في تلمسان غير أن المؤكد هو أن عقبة بن نافع قد مر بها في طريقه إلى المغرب العربي.

ثالثا: هجرة الأندلسيين إلى تلمسان وحفاوة الاستقبال

أعطى السلطان يغمراسن التلمساني أهمية كبيرة لموضوع المهاجرين الأندلسيين والظهير الذي أصدره في شأنهم يؤكد على العناية الكاملة بهم ويكرم علمائهم وأعيانهم غاية الإكرام.

ويصرح ابن الخطاب بأن يغمراسن فضل أن يسكن المهاجرون الأندلسيون مدينة تلمسان عن باقي المدن الأخرى، وفي هذا يقول " واطلع يغمراسن على أغراضهم السديدة في اختيار حضرته السعيدة للسكنى على سائر البلاد فلحظ منهم النية واعتبرها واطهر عليهم مزايا ما لهم.....".

وقد استمر تدفق الهجرة الأندلسية على مدينة تلمسان ودار الإسلام في بلاد الغرب إثر وبعد سقوط غرناطة وزوال دولة بني الأحمر عام 1491 م ومما يلاحظ هنا أن هؤلاء المهجرين قدموا في شكل جماعات محافظين على عاداتهم وتقاليدهم وخصوصياتهم الأندلسية.

ونجد أن تاريخ الأندلس يشتمل على أكثر من 800 سنة من 711 إلى 1492 م لذا يجب معلفة كيف سقطت الأندلس وما عوامل سقوطها كما يجب أن لا ننسى كيف سقطت بلنسية وكيف قتل 600 ألف مسلم كما لا ننسى مأساة برنشتير وكيف قتل 40 ألف مسلم

وقصة الأندلس قصة مؤلمة ذلك أننا نستعرض تاريخنا ومجدنا زاهرا، ونحن نعلم أن هذا المجد قد انتهى وضاع وصارت الأندلس الفردوس المفقود التي كانت مركز إشعاع علمي روحاني واقتصادي وغيرها.

رابعا: النبوغ العلمي والأدبي التلمساني الأندلسي

كان حمو أبو موسى ملك تلمسان كريم الأخلاق يتبرع على أهل الأندلس بالمال والخيل معتبرا ذلك جهادا في سبيل الله عز وجل تحريرا لأرض الأندلس مسقط رأسه من أزمة الاسبان.

وقد كانت له مواقف أسهمت في إنقاذ أهل الأندلس من الهلاك، حيث وجد لهم عام 1361 م 50 ألف قذح من الزرع وقد شكره على ذلك لسان الدين بن الخطيب، الوزير المشتهر¹ ومما قال فيه.

لقد زار الجزيرة منك بحر يمد فليس تعرف منه جزرا

أعدت لها بعهدك عهد موسى سميك فهي تتلو منه ذكرا

أقمت جدارها وأفدت كنزا ولو شئت اتخذت عليه أجرا

ومما وصف به ابن الخطيب البعد العلمي والأدبي والحضاري لتلمسان قوله:

"تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه، عبادها يدها وكهفها كفها، وزينتها زياتها وعينها أعيانها وهواها المقصور بما فريد وهواها الممدود صحيح عتيد وماؤها برود صريد، حجتها أيدي القدرة عن الجنوب فلا نحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع ومسرح ضرع فواكهها عديدة الأنواع ومتاجرها فريدة الانتفاع وبرانسها رفاق رفاع، إلا أنها بسبب حب الملوك صارت مطمعا للملوك ومن أجله جمعها الصيد في جوف الفرا، مغلوبة للأمرء، أهلها ليست عندهم الراحة، إلا فيما قبضت عليه الراحة ولا فلاحه إلا لمن اقام رسم الفلاحه، ليس بما لسع العقارب إلا فيما بين الاقارب ولا شطارة غلا فيمن ارتكب الخطارة".

ولقد استحسن ابن خلدون التعليم الذي كان قائما بتلمسان ولا نتعجب من موقفه من هذا التعليم فغنه هو نفسه قد تلقى العلم في الجزائر وتلمذ لعلمائها قبل أن يشرع في تدوين مقدمته عام 776 هذه المقدمة التي بها اشتهر وبها اصبح للتاريخ اتجاه جديد.

وقد كان أحاه "أبا زكريا يحيى" كاتب "أبي حمو موسى الثاني" وكان هو الآخر ولكنه لم يبلغ شأو أخيه في كتابة التاريخ².

أما عن الثقافة الأندلسية فقد كانت متعدد المشارب والفروع وبدأت العلوم بانتقال بعض الصحابة والتابعين من حملة العلم، وعندما هم موسى بن نصير بغزو الأندلس وفتحها كان ممن معه المنذر الصحابي الجليل ومن التابعين علي بن رباح³.

¹ محمد طمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص 221.

² نفس المرجع، ص 229.

³ أحمد أمين، أحمد أمين ظهر الاسلام، در الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.س) ط 05، ج 3، ص 48.

وجاءت طبقة ثانية من أجل أعلامها عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي وغيرهم فكان لهم دور بارز في إذاعة العلوم بالأندلس إلى أن جاء غير هؤلاء من الأدباء والعلماء.

وتطورت الآداب والعلوم تطوراً كبيراً وصار الأندلس من أبرز العواصم الكبرى للعلم والثقافة ليست خاصة بالعالم العربي والإسلامي فحسب بل تعداه إلى الدول الأوربية المجاورة، ومن أهم المدن الأندلسية التي كانت مركز إشعاع علمي، قرطبة، اشبيلية، غرناطة، طليطلة، ولم تكن للأندلسيين مدارس ومعاهد وجامعات خاصة، بل كان المسجد هو الحاضرة العلمية يقوم مقام المعهد والجامعة.¹

لقد قامت على أرض الأندلس العديد من الدول الطائفية وهي²:

- الدول البربرية 1015-1090 في غرناطة.
- الدولة الحمودية 1035-1039 في مالقة
- الدولة اليهودية 1039-1115 في سرقسطة
- الدولة العامرية 1021-1065 في بلنسية
- الدولة العبادية 1023-1091 في اشبيلية
- دولة بن الألفس 1022-1092 في بطليوس
- الدولة الجهورية 1031-1070 في قرطبة
- دولة بن ذي النون 1036-1085 في طليطلة
- دولة بني الأحمر 1232-1391 في غرناطة

وظلت الأندلس على شتاتها إلى أن وحدها الملك المغربي والقائد العظيم يوسف بن تاشفين وضمها إلى بلاد المغرب سنة 484 هـ، وقد كان المجتمع الأندلسي يضم أطيافاً مختلفة من البشر وطبقات عديدة من الناس.

1/ العرب: وهم فاتحوا البلاد وأتوا بالإسلام والعربية وأضحت لغتهم ومعارفهم هي السائدة في الأندلس فأذاعوا سلطاتهم فكانوا سادة البلاد وعلمائها³.

¹ عطية طيباوي، الحافظ بن عبد البر ومنهجه في تفسير آيات الأحكام، مذكرة ماجستير كلية العلوم الإسلامية الجزائر 207، ص 06 وما يليها.

² عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار القراء وأعيان الكتاب الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي (د. ط. د. س) تحقيق محمد سعيد العريان، ص 124 وما يليها.

أحمد بن محمد المقرئ، فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت (د. ط.) 1988، ج 1، ص 430 وما يليها.

³ أحمد أمين، المرجع السابق، ص 01 وما يليها.
عطية طيباوي، المرجع السابق، ص 06 وما يليها.

02/ البربر: وهم من بين المشاركين في فتح الأندلس مشاركين للعرب في فتحها إلا أنهم قاموا فيما بعد بثورات وفتن واستعانوا بالنصارى ضد المسلمين وكان من أهم عامل لانحياز الدولة الإسلامية بالأندلس.

03/ السكان الأصليون: ومنهم من تمسك بديانته ومنهم من أسلم وكان له حظ كبير من الحرية والرعاية.

04/ اليهود والنصارى: وكانت لهم الكثير من الحقوق والحرية حتى حظوا بمناصب كبيرة في الدولة، ورغم هذا المزيج من الاجناس إلا أن العرب كان لهم التأثير البالغ في الأخلاق والعادات وطرق المعيشة وتمتع المجتمع الأندلسي بسعة كبيرة ترفا ونعيما وجمالا للطبيعة ووفرة للمال والغذاء.

وقد خرج جماعة من علماء الأندلس إلى تلمسان قبيل أخذ غرناطة وقد احسوا بان العدو رابض متربص للاستيلاء عليها ، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق.

" ولما استولى الإسبان على غرناطة عام 1429 ما كان على المسلمين إلا أن يهجروا الأندلس العزيزة فنزح عدد كبير وانتشروا في حواضرها ومن أهمها تلمسان التي كانت على صلة وثيقة بالأندلس وحملوا معهم علومهم وآدابهم وفنونهم فقد نظموا حلقات تعليم بالمدارس والمساجد وخصصة بالمسجد الجامع، وكان هذا المسجد قبل هذه الآونة مركزا من مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ عهد سحيق كمسجد كل من تيارت وعنابة وبجاية والجزائر، ولكن أثر نزوح الأندلسيين إلى تلمسان أصبح معهدا للتدريس لا يقل أهمية عن جامع الزيتونة أو القرويين وتمتاز هذه الحقبة من الزمن بحركة التعريف في الربوع الجزائرية وهذه الحركة التي قام بها اولئك النازحون تلاحق بحركة التعريب في عهد الرستميين في تيارت وفي عهد المأمون ببغداد وعبد الرحمن الناصر والحكم بقرطبة..

ومن الشخصيات الأدبية والفكرية البارزة التي وردت على تلمسان عند سقوط غرناطة في بدو العدو وهذه الشخصية تتمثل في "أبي عبد الله بن الحداد الوادي آشي" وهو شاعر وأديب ومفكر مشار إليه في التعاليم منقطع القرنين منها في الموسيقى مضطلعا بفك المعنى سكن المرية واشتهر بمدح رؤسائها من بني صادح وقال ابن سام، " كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة وبجر خبر وسيرة وديوان تعاليم شهيرة وضح في طريق المعار وضوح الصبح المتهلل وضرب فيها بأقداح ابن مقبل إلى جلاله مقطع وأصاله منزع ترى العلم ينم عن اشعاره يبين في

منازعه وآثاره" خلف لنا ديوان شعر كبير وله في العروض تصنيف مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية¹.

وقد قال المقرري في أزهاره "كان كثير النسخ والتقييد آية الله في ذلك حتى أني رأيت في خزائن أهل تلمسان بخطه نحو مائة سفر ورأيت بفاس نحو الثمانمائة وأحبرني مولانا شيخ الاسلام مفتي تلمسان سيدي سعيد أحمد المقرري رحمه الله أنه نسخ بخطه نحو العشرين نسخة من توضيح خليل وكان يحترف بالنسخ ونظمه نظم فقيه وربما يقع له النادر".

وقد سبق ذكر أن جاليات متتالية أتت الأندلس واستوطنت الجزائر فانتقال هؤلاء الأندلسيين عابرا كان أو دائما وإقامتهم في البلاد قصيرة أو طويلة، كل ذلك له أثره في تبادل المؤثرات وتلاقح المعاش، والعوائد والأخلاق فسوق الثقافة راجت رواجاً كبيراً فزخرت المدارس والمساجد بالعلماء والأدباء وكثر الفنانون من معماريين وموسيقيين وغيرهم وسخر الله للجزائر أمراء يحبون العلم ويقربون أهله وقيّمون المباني تكون شعارهم كمرکزهم وسلطانهم.

وقد كان الفن الجزائري قبل هذه الفترة متأثراً إلى نحو ما بالفن الشرقي إلى أن تم الاستقبال بعد سقوط الأندلس حيث وفد فيها وفنانوها وساعد امتزاج الفن الجزائري والأندلسي ووجود صناعات حذاق من الجالية الأندلسية التي استقرت بالجزائر منذ القرن 5 هـ واستمرت عملية الامتزاج نحو 03 قرون اتخذ بعدها هذا الفن الجديد إطاره النهائي وذلك في عهد بني زيان فإن هؤلاء بفضل ما أبدعوه من روائع تبوأوا المقام السامي في تاريخ الفن الاسلامي ولا سيما في عهدي "أبي تاشفين" و"أبي حمو موسى الثاني"، حيث نشأ هذا التاريخ وعاش غير قليل بالأندلس مع أسرته وتشبع بالثقافة الأندلسية الرائعة فأصبحت تلمسان ببنائاتها وحدائقها أشبه بإشبيلية وقرطبة في روائعها الفنية وطبيعتها الفتانة، كانت قصور بني زيان لا يعبر عن جنسها اختطها (أبو حمو الأول، وابنه "أبو تاشفين") واستدعيا الضائع من الأندلس فبعث إليهما "أبو الوليد الأحمر" بمهرة البنائين استجدوا لهم القصور والمنازل والبساتين، وكان أبو تاشفين الأول مولعا بالتعمير وبصيرا بالتشكيل والاختراع².

واندمج الأندلسيون بتلمسان ووجدوا الترحاب والحفاوة بعد الاضطهاد الاسباني المسيحي التأمري.

ومن المفارقات التي نجدها ما يفعله هم بنا وما فعلناه نحن لهم، فهذا التاريخ شاهد بما فعله

الأمير عبد القادر الجزائري حيث أنقذ الآلاف من المسيحيين من موت محتم بدمشق عام 1860.

¹ محمد الطمار، المرجع السابق، ص 209.

² محمد الطمار، المرجع السابق، ص 210.

وَعُدَّ الأَمِيرُ عبد القادر أول من قام بوضع أسس القانون الدولي الإنساني منذ عام 1837، وهذا حتى قبل ظهور أفكار هنري دينون مؤسس حركة الصليب الأحمر، بل حتى قبل إبرام معاهد جنيف التي لم تكتمل إلا في عام 1864، ويحفظ التاريخ للأمير عبد القادر الكثير من المواقف الإنسانية الرفيعة²¹.

¹ شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.